الكتاب الرابع

اضمحلال الحرية اليونانية وسقوطها

من ٣٩٩ الى ٣٢٢ ق . م

obeikandl.com

obeikandl.com

ثبت مسلسل للحوادث التاريخية

فى الكتاب الرابع

ق . م .

٣٩٩ — ٦٠ أجلسوس ملك اسپارطة .

— ٣٩٧ الحرب بين سراقوصة وقرطاجة .

— ٣٩٦ أرستپوس فى سيرينى وأنتستانس فى أثينه ، فيلسوفان .

— ٣٩٥ أثينة تعيد بناء الأسوار الطويلة .

— ٣٩٤ واقعتا كرونيا وثيدس .

— ٣٩٣ أپولوچية أفلاطون ؛ وممرابلية أكسانوفون ، وإكلازوسية أرسطوفان .

٣٩٠ — ٣٨٧ ديونيشيوس يخضع إيطاليا الجنوبية .

— ٣٩١ إسقراط يفتتح مدرسته .

— ٣٩٠ إفغوراس يصبغ قبرص بالصبغة اليونانية .

— ٣٨٧ صلح أنتلسداس ، أو صلح الملك ؛ أفلاطون يزور أرقطياس التاراسى العالم الرياضى ، وديونيشيوس الأول .

— ٣٨٦ أفلاطون ينشئ المجمع العلمى (الأقاديمة) .

— ٣٨٣ الاسپارطيون يحتلون كدمية عند طيبة .

— ٣٨٠ پنيچركس لإسقراط .

— ٣٧٩ پلپداس وميلون يحرران طيبة .

٣٧٨ — ٥٤ الإمبراطورية الأثينية الثانية .

— ٣٧٥ ثياثيتس ، العالم الرياضى .

— ٣٧٢ ديجين السنوبى ، الفيلسوف .

— ٣٧١ أپامينِنداس ينتصر عند لكترا .

— ٣٧٠ ديوقليس الموبى عالم الأجنة ، وديوكسس النيدى الفلكى .

٣٦٧ — ٥٧ ديونيشيوس الثانى طاغية فى سراقوصة ، ديون يضع خططاً للإصلاح .

— ٣٦٧ أفلاطون يزور ديونيشيس الثانى .

— ٣٦٢ أپامينِنداس ينتصر ويموت عند منتينيا .

— ٣٦١ زيارة أفلاطون الثالثة لسراقوصة .

obeikandi.com

ق . م .

- ٣٦٠ — بركستليز الأثيني ، واسكوپاس الپاروسي المثالان ؛ إفورس السيمى وثيوپمپس الطشيوزى المؤرخان .
- ٣٥٩ — فليپ الثانى نائب الملك فى مقدونية .
- ٣٥٧ — ٤٦ الحرب بين أثينة ومقدونية .
- ٣٥٧ — ٤٦ نفى ديونيشيوس الثانى .
- ٣٥٦ — ٤٦ الحرب المقدسة الثانية .
- ٣٥٦ — مولد الإسكندر الأكبر ؛ حرق الهيكل الثانى فى إفسوس ، مسرحية « فى السلم » لإسقراط .
- ٣٥٥ — مسرحية أريبجستس لسقراط .
- ٣٥٤ — اغتيال ديون .
- ٣٥٣ — ٤٩ تابوت هليكرنسس .
- ٣٥١ — « فليپ الأول » تأليف دمستين .
- ٣٤٩ — فليپ يهاجم أولنثس ، دمستين يكتب « أولنثياكس الأول والثانى » .
- ٣٤٨ — هرقليدس البنتوسى الفلكى ، اسبوسيبوس يخلف أفلاطون فى رياسة المجمع العلمى .
- ٣٤٦ — « فى السلم » تأليف دمستين ؛ « رسالة لفليپ » لإسقراط .
- ٣٤٤ — تيمليون ينقذ سراقوصة ؛ « فليپ الثانى » تأليف دمستين .
- ٣٤٣ — محاكمة إسكنيز وتبرئته .
- ٣٤٢ — ٣٨ أرسطاطاليس معلم الإسكندر .
- ٣٤٠ — تيمليون يهزم القرطاجيين .
- ٣٣٨ — فليپ يهزم الأثينيين فى خيرونية ؛ موت إسقراط .
- ٣٣٦ — اغتيال فليپ ، ارتقاء الإسكندر ودارا الثالث عرشى بلادهما .
- ٣٣٥ — الإسكندر يحرق طيبة ويبدأ الحملة الفارسية .
- ٣٣٤ — أرسطاطاليس يفتتح الوقيون ، واقعة نهر غرنيقوس ؛ نصب تذكارى ليسقراطس .
- ٣٣٣ — واقعة إسوس .
- ٣٣٢ — حصار صور والاستيلاء عليها ؛ تسليم أورشليم ؛ تأسيس الإسكندرية .
- ٣٣١ — واقعة جوجميلا (أربيلا) ؛ الإسكندر فى بابل والسوس .

ق . م .

– ٣٣٠ أپليز السيوفى المصور ، ليسيوض الأرجوسى المثال ، مسرحية « ضد تسيفون » لإسكنيز ؛ ومسرحية « على التاج » لدمستين .

٣٢٩ – ٢٨ الإسكندر يغزو آسية الوسطى .

– ٣٢٧ موت كليتس وكلسثنيز .

٣٢٧ – ٢٥ الإسكندر فى الهند .

– ٣٢٥ رحلة نيركس .

– ٣٢٤ نفى دمستين .

– ٣٢٣ موت الإسكندر ؛ الحرب اللامية .

– ٣٢٢ موت أرسطاطاليس ، ودمستين ، وديجين .

---

obeikandl.com

الباب التاسع عشر

فليب

الفصل الأول

إمبراطورية اسبارطة

بسطت اسپارطة الآن سيادتها البحرية على بلاد اليونان ، ودامت لها هذه السيادة فترة قصيرة من الزمان مثلت فى التاريخ مرة أخرى مأساة من مآسى النجاح يذل صاحبه الكبرياء . فهى لم تمنح المدن التى كانت من قبل خاضعة لأثينة ما وعدتها به من حرية ، بل فرضت عليها بدلا من هذا جزية سنوية مقدارها ألف وزنة (١٠٠٠ر٦٠٠٠ ريال أمريكى) ، وأقامت فى كل منها حكماً أرستقراطياً يشرف عليه حاكم لسدمونى تؤيده حامية اسپارطية . ولم تكن هذه الحكومات مسئولة إلا أمام الحكام الاسپارطيين البعيدين عنها ، فأوغلت فى الفساد والظلم إيغالا لم يلبث أن أوغر الصدور على الحكومة الجديدة أكثر مما كانت موغرة على الحكومة القديمة .

وفى اسپارطة نفسها كان سيل المال والهدايا المنهمر من المدائن الخاضعة لاستبدادها والألجركيين الأذلاء سبباً فى تقوية العوامل الداخلية التى كانت تدفع المدينة دفعاً إلى الانهيار . فلم يستهل القرن الرابع حتى تعلمت الطبقة الحاكمة كيف تجمع بين الترف فى الحياة الخاضعة والبساطة فى الحياة العامة ، وحتى الحكام أنفسهم لم يعودوا يتأدبون بأدب ليتورغ إلا فى

المظهر الخارجى دون غيره . وانتقل الكثير من الأراضى عن طريق البائنات والوصايا إلى النساء ؛ وهذه الثروة المكدسة جعلت النساء الاسپارطيات — وهن اللائى لم يكن يتحملن عبء تربية الذكور من الأبناء — يحيين حياة مريحة متحللة من القيود الأخلاقية لا توائم الأنوثة بحال من الأحوال . هذا إلى أن ما تعاقب على بعض الضياع من تقسيم فى إثر تقسيم قد أفقر بعض الأسر فقراً عجزت معه عن تقديم نصيبها من الطعام العام ، ففقدت بذلك ما كان لها من حقوق المواطنية ، على حين أن تضخم بعض الثروات الأخرى عن طريق الزواج والوصايا قد أوجد لدى العدد القليل من « الأنداد » الباقين ثراوت كبيرة مركزة أثارت الغيرة والحسد فى القلوب(*) . وفى ذلك يقول أرسطاطاليس : « من الاسپارطيين من يمتلك ضياعاً واسعة ، ومنهم من لا يكادون يمتلكون شيئا على الإطلاق ، فالأرض بأجمعها فى أيدى عدد قليل منهم[٣] » . وتكون من الطبقات العليا التى فقدت حقوقها السياسية ومن البريسيين المحرومين من هذه الحقوق ، والهيلوتيين الحانقين ، مجموعة من الأهلين يضطرب فى نفوسها من القلق والعداء ما لا يسمح للحكومة أن تقدم على شئ من المغامرات العسكرية الخارجية التى يتطلبها الحكم الإمبراطورى إقداما يشغلها زمناً طويلا فى أماكن واسعة .

وكانت الحرب الأهلية القائمة فى بلاد الفرس وقتئذ تشكل مصائر بلاد اليونان ؛ فقد ثار قورش الأصغر فى عام ٤٠١ على أخيه أرتخشتر الثانى ، واستعان عليه باسپارطة ، وجند جيشا من آلاف اليونان وغيرهم من الجنود المرتزقة الذين أصبحوا ولا عمل لهم فى آسية على أثر انتهاء حرب البلوپونيز الفجائى . والتقى الأخوان المتقاتلان فى كونكسا بين دجلة والفرات وقرب ملتقاهما . وهزم قورش فى هذه الواقعة وقتل وأسر جيشه كله أو أبيد عدا فرقة مؤلفة من اثنى عشر ألفاً من اليونان استعانوا بسرعة بديهتهم وإقدامهم

(*) كان عدد المدوريين Homoioi أو « الأنداد » ثمانية آلاف فى عام ٤٨٠ ، وألفين فى عام ٣٧١ وسبعمائة فى عام ٣٤١ .

على الهرب إلى داخـل بلاد بابل . وطاردتهم قوات الملك فاختاروا على طريقتهم الدمقراطية الساذجة ثلاثة قواد يهدونهم سبيل السلامة . وكان من بين هؤلاء القواد أكسانوفون الذى كان فى يوم من الأيام تلميذاً لسقراط ، والذى كان وقتئذ جندياً شاباً مغامراً ، قدر له أن يخلد اسمه على الأخص بمؤلفه المعروف بالأناباسيس Anabasis أو الصعود الذى وصف فيه وصفاً بسيطا رائعاً « ارتداد العشرة الآلاف » الطويل متتبعين مجرى نهر الفرات نحو منبعه وفوق تلال كردستان وأرمينية إلى البحر الأسود . وكان هذا الارتداد من أعظم المغامرات فى تاريخ البشر . وإنا لتدهشنا أشد الدهشة بسالة هؤلاء اليونان وهم يشقون طريقهم سيراً على أقدامهم يوما بعد يوم خمسة شهور كاملة ، قطعوا فى أثنائها ألفى ميل كاملة فى بلاد معادية لهم ، واجتازوا سهولا قائظة لا يجدون فيها طعاما ، وطرقا وعرة خطرة فوق الجبال تتراكم فيها الثلوج إلى عمق ثمان أقدام ، يتعرضون فيها لهجمات الجيوش والعصابات المسلحة من خلفهم وأمامهم ، وعن أيمانهم وشمائلهم ، ولا يترك أهل البلاد وسيلة إلا اتبعوها لقتلهم أو إضلالهم أو سد الطريق فى وجوههم . ونحن حين نقرأ هذه القصة الرائعة ، التى شوهها فى شبابنا إرغامنا على ترجمتها ، ندرك أن أهم سلاح تحتاجه الجيوش هو سلاح الطعام ، وأن مهارة القائد فى تدبير المؤن لجيشه لا تقل أهمية عن مهارته فى تدبير الفوز فى المعركة . وقد هلك من هؤلاء اليونان من التعرض للعوامل الجوية أكثر ممن هلك منهم فى الوقائع الحربية ، وإن كانت هذه الوقائع لم تنقطع يوماً واحداً . ولما أن وقعت عيون الباقين منهم أحياء ، وكانت عدتهم ٨٫٦٠٠ ، على بحر اليوكسين عند ترپيزى (طربزون) غمرت قلوبهم موجة من السرور .

« ولم تكد مقدمتهم تصل إلى قمة الجبل حتى علت فى الجو صيحة شديدة سمعها أكسانوفون ومن فى المؤخرة فخيل إليهم أن أعداء آخرين يهاجمون المقدمة لأن الأعداء كانوا يقتفون آثارهم من خلفهم . . . فاستحثوا الخطى إلى

الأمام ليساعدوا رفاقهم ، وسرعان ما سمعوا الجنود يصيحون « البحر ! البحر ! » والصيحة تنتقل من صف إلى صف . وحينئذ هرول جنود المؤخرة جميعهم ، وأخذت دواب الحمل تتسابق إلى الأمام . .. ولما صعدوا جميعاً إلى قمة الجبل أخذ كل منهم يعانق زميله ، لا فرق بين الجنود والضباط والقواد ، والدموع تترقرق فى أعينهم من فرط السرور[٤] » .

ذلك أن هذا البحر بحر يونانى وأن مدينة ترابيزى مدينة يونانية ، فهاهم أولاء قد وصلوا سالمين ، وفى وسعهم أن يستريحوا ولا يخشوا أن يفاجئهم الموت فى سكون الليل . وترددت أصداء جهودهم المضنية فى طول بلاد هلاس القديمة وعرضها ، وشجعت فليب بعد مائتى عام من ذلك الوقت على الاعتقاد بأن قوة يونانية حسنة التدريب خليقة بأن يركن إليها فى هزيمة جيش فارسى يفوقها فى العدد أضعافاً مضاعفة . وهكذا مهد أكسانوفون على غير علم منه السبيل إلى الإسكندر .

ولعل أجسلوس الذى اعتلى عرش اسپارطة فى عام ٣٩٩ قد شعر بهذا الأثر . فلقد كان فى الاستطاعة إقناع بلاد الفرس أن تغفر لاسپارطة إقدامها على معونة قورش ، لكن هذا الملك ، وهو أقدر ملوك اسپارطة على الإطلاق ، لم يكن ينظر إلى حرب الفرس أكثر من نظرته إلى مغامرة ممتعة ، ولذلك سار على رأس قوة صغيرة ليحرر جميع بلاد آسية اليونانية من حكمهم[*] . ولما علم أرتخشتر الثانى أن أجسلوس لم يكن يأتى عناء فى تشتيت شمل جميع الجيوش الفارسية التى أرسلت لصده ، بعث الرسل يحملون كميات كبيرة من الذهب إلى أثينة وطيبة ليرشوا بها هاتين المدينتين كى تعلنا الحرب على اسپارطة[٦] . وسرعان ما أفلح هؤلاء الرسل فى مهمتهم ، وتجددت الحرب بين اسپارطة وأثينة بعد أن دامت السلم بينهما تسعة أعوام . واستدعى أجسلوس من آسية ليواجه جيوش أثينة وطيبة مجتمعة عند

(*) وقال وقتئذ : « فى أى شىء يعلو علىّ ملك الفرس ، إلا إذا كان أكثر منى استقامة وأشد منى كبحاً لجماح نفسه ؟(٥) » .

obeikandl.com

كرونيا . واستطاع أن يهزمها بشق الأنفس ؛ ولكن أسطولى أثينة وفارس مجتمعين بقيادة كونون Conon دمرا الأسطول الاسپارطى قرب نيدس بعد شهر واحد من ذلك الوقت وقضيا بذلك على ما كان لاسپارطة من سيادة بحرية قصيرة الأجل . وابتهجت أثينة بهذا النصر المؤزر وأخذت تعمل بجد ستعينة بما أمدتها به فارس من المال لإعادة بناء أسوارها الطويلة . ودافعت اسپارطة عن نفسها بأن أرسلت رسولا يدعى أنتلسداس Antalcidas إلى الملك العظيم يعرض عليه أن تسلمه المدن اليونانية فى آسية ليحكمها الفرس إذا فرضت فارس على مدن اليونان الأصلية صلحاً يحمى اسپارطة من العدوان . ووافق الملك العظيم على هذا الشرط ، وامتنع عن مساعدة أثينة وطيبة بالمال ، وأرغم المتنازعين جميعاً على أن يوقعوا فى سرديس (٣٨٧) « صلح أنتلسداس » أو « صلح الملك » وأعطيت بمقتضى هذا الصلح لمنوس ، وأمبروس ، وسيروس إلى أثينة ؛ وضمن الاستقلال للدول اليونانية الكبرى ؛ ولكنه أعلن أن جميع المدائن اليونانية فى آسية ، وجزيرة قبرص ، قد أضحت للملك العظيم . ووقعت أثينة على شروط الصلح بعد أن احتجت عليها لعلمها أن هذه كانت أكثر الحوادث إذلالا لها فى تاريخ اليونان كله . وهكذا ضاعت ثمار نصر مرثون كلها ، وظلت أثينة ضائعة جيلا كاملا ، وبقيت دول اليونان الأصلية حرة بالاسم ، أما فى واقع الأمر قد ابتلعتها قوة الفرس . ونظرت بلاد اليونان بأجمعها إلى اسپارطة نظرتها إلى الخائن الغادر ، وأخذت تنتظر على أحر من الجمر أن تقوم أمة من الأمم تهلكها وتدمرها .

الفصل الثانى

إپامينينداس

وكأنما أرادت اسپارطة أن تقوى هذا الحقد فى صدور الدول اليونانية الأخرى ، فادعت لنفسها حق تفسير شروط « صلح الملك » وإرغام هذه الدول على الخضوع لها . وأرادت أن تضعف قوة طيبة فأصرت على أن الحلف البؤوتى لايتفق مع الشرط القاضى باستقلال الدول اليونانية الكبرى وحتمت حله . وتذرعت اسپارطة بهذه الحجة فأقامت فى كثير من المدن البؤوتية حكومات ألجركية موالية لها ، تؤيدها فى كثير من الحالات حاميات اسپارطية ، ولما احتجت طيبة على هذا العمل استولت قوة لسديمونية على كدميا Cadmeia معقلها الحصين ، وأقامت فيها حكومة ألجركية خاضعة لسيطرة اسپارطة . وأثارت هذه الأزمة فى نفس طيبة بطولة لا عهد لها بها . فاغتال پلپداس Plopidas وستة من رفاقه طغاة طيبة الأربعة صنائع اسپارطة ، وأعادوا إلى المدينة حريتها واستقلالها . وأعيد تنظيم الحلف واختير پلپداس زعيما له ، واستدعى پلپداس لمعونته صديقه وحبيبه إپامينينداس ، فدرب الجيش الذى أعاد اسپارطة إلى عزلتها القديمة ، وقاده بنفسه فى المعارك التى انتهت بهذه النتيجة .

وكان إپامينينداس من أسرة عريقة أخنى عليها الدهر تفخر بأن ترجع بأصولها إلى أنياب الهولة التى زرعها كدمس قبل مولده بألف عام . وكان رجلا هادئاً قيل عنه إنه ليس بين الناس من هو أقل منه كلاماً أو أكثر منه معرفة(٧) ؛ وقد حببه إلى أهل طيبة ، على الرغم من النظام العسكرى الذى أخذهم به ، تواضعه واستقامته ، وحياته التى لا تكاد تفترق فى شىء عن حياة الزهاد ، وإخلاصه لأصدقائه ، وسداد رأيه إذا استنصح ، وشجاعته

obeikandi.com

المصحوبة بالتؤدة ، ضبط النفس وقت العمل : ولم يكن يحب الحرب ولكنه كان يعتقد أنه لا توجد أمة على ظهر الأرض تستطيع الاحتفاظ بحريتها إذا فقدت روحها وعاداتها الحربية . ولما اختير المرة بعد المرة رئيساً للحلف البؤوتى حذر الذين أرادوا أن يعطوه أصواتهم بقوله : « فكروا فى الأمر مرة أخرى لأنى إذا وليتمونى قيادتكم سأضطركم إلى الخدمة فى جيشى »[٨] . ودرب الطيبيون المتراخون تحت قيادته حتى صاروا جنوداً بواسل ، وحتى العشاق اليونان الذين كثر عددهم فى المدينة ألّف منهم بلپداس « عصبة مقدسة » تبلغ عدتها ثلثمائة من المحاربين قطع كل منهم على نفسه عهداً بأن يقف فى المعركة إلى جانب صديقه حتى يموت .

ولما غزا بؤوتية جيش اسپارطى عدته عشرة آلاف جندى يقوده الملك كليمبروتس ، التقى به إپامينداس عند لكترا بالقرب من پلاتية ومعه ستة آلاف رجل وانتصر عليه نصراً كان له أعظم الأثر فى تاريخ اليونان كله وفى أساليب أوربا العسكرية . وكان هو أول يونانى وجه عنايته إلى دراسة الحركات العسكرية ، وكان يقدر على الدوام أنه سيواجه فى كل معركة عدواً يفوقه فى عدد الرجال ، فكان يركز نخبة مقاتليه ليهاجم بهم أحد جناحى العدو ؛ ثم يأمر بقية الجيش أن تلتزم خطة الدفاع ، فإذا تقدم العدو فى القلب أمكن تشتيت شمله بهجوم على جناحه الأيسر . ولما تم له النصر فى واقعة لكترا زحف هو وپلپداس إلى البلوپونيز وحررا مسينيا من تبعيتها لإسپارطة التى دامت قرناً من الزمان ، وأسسا مدينة مغالوپوليس لتكون معقلا لجميع الأركاديين . ونزل الجيش الطيبى إلى لكونيا نفسها ؛ وتلك حادثة لم يكن لها مثيل منذ مئات من السنين ، ولم تستفق اسپارطة قط مما لحق بها من الخسارة فى هذه الحملة : « فلم تستطع » على حد قول أرسطاطاليس « أن تفيق من هزيمة واحدة ، وقضى عليها قلة عدد مواطنيها »[٩] .

ولما أقبل فصل الشتاء انسحب الطيبيون إلى بؤوتية . واغتر إپامينداس

بالنصر كما كان يغتر به سائر قواد اليونان المنتصرون ، فبدأ يفكر فى إنشاء إمبراطورية طيبية تحل محل الوحدة التى أفاءتها زعامة أثينة أو اسپارطة من قبل على بلاد اليونان ، وقد جرته هذه الخطة إلى محاربة الأثينيين ، وأرادت اسپارطة أن تسترد مكانتها السابقة فتحالفت مع أثينة ، والتقت جيوش الأعداء عند منتينيا عام ٣٦٢ ق : م ، وانتصر إپاميننداس فى هذه المعركة ، ولكنه قتل فى أثنائها بيد جرلس Gryllus بن أكسانوفون . ولم تجن هلاس خيراً دائماً من زعامة طيبة القصيرة . نعم إنها حررت بلاد اليونان من طغيان اسپارطة ، ولكنها عجزت ، كما عجز من قبلها ، عن أن توجد خارج نطاق بؤوتة وحدة متجانسة متماسكة ؛ وكان من أثر النزاع الذى خلقته فى بلاد اليونان أن أضحت الدول اليونانية من أثره مضطربة ضعيفة عاجزة عن لقاء فليب حينما انقض عليها من الشمال .

الفصل الثالث

الإمبراطورية الأثينية الثانية

وحاولت أثينة للمرة الأخيرة أن تؤلف هذه الوحدة : واستطاعت بفضل أسوارها الطويلة ، وأساطيلها التى جددت بناءها ، وماليتها الثابته الموثوق بها ، وما تيسر لها من زمن بعيد من الوسائل المالية والتجارية ، استطاعت بفضل هذا كله أن تستعيد ما كان لها من سيادة تجارية فى بحر إيجة . وكانت الدول التى خضعت لها من قبل والدول المتحالفة معها قد علمتها الحروبُ التى دامت خمسين عاماً كاملة أنها فى مسيس الحاجة إلى سلامة أعظم مما تهيؤه لها السيادة الفردية ، ولهذا اتحدت معظم هذه الدول مرة أخرى فى عام ٣٧٨ بزعامة أثينة ، ولم يحل عام ٣٧٠ حتى كانت هذه المدينة مرة أخرى أقوى الدول سلطاناً فى شرق البحر الأبيض المتوسط .

وكانت الصناعة والتجارة هما وقتئذ عماد حياتها الاقتصادية . ذلك أن أرض أتكا لم تكن فى يوم من الأيام مما يوائم الزراعة الجماعية . نعم إن العمل الشاق الطويل قد جعلها أرضاً مثمرة بفضل عناية الأهلين بأشجار التوت وبالكروم ؛ ولكن الإسپارطيين كانوا قد دمروا هذه الغروس ، وقلما كان من المزارعين من يستطيع الصبر نصف جيل حتى تثمر بساتين الزيتون الجديدة ثمارها . وكان معظم الزراع الذين عاشوا قبل الحروب قد قضوا نحبهم ، وكان معظم من بقى من الزراع قد دب اليـــأس فى نفوسهم فمنعهم أن يعودوا إلى أملاكهم المخربة فباعوها بأبخس الأثمان لملاك يستغلونها وهم بعيدون عنها ، وفى وسعهم أن يستثمروا أموالهم فيها استثماراً طويل الأجل . وبهذه الطريقة ، وبانتزاع ملكية الأراضى الزراعية المثقلة بالدين ، انتقلت هذه الأراضى فى أتكا إلى أيدى عدد قليل من الأسر كانت

تستغل كثيراً من المزارع الواسعة بجهود الأرقاء[10] . وأعيد فتح مناجم لوريوم ، وأرسل إلى الحفر ضحايا جدد ، وتكونت ثروات جديدة من الفضة النقل ومن الدماء البشرية ؛ وعرض أكسانوفون[11] طريقة ظريفة تستطيع بها أثينة أن تملأ خزائنها بالمال ، ولا تكلفها أكثر من أن تشترى مائة ألف من الأرقاء تؤجرهم إلى المقاولين فى لاريوم . وأثمرت هذه الطريقة ثمرتها المرجوة فاستخرجت من الفضة مقادير تفوق ما كان ينتج من السلع ، فارتفعت الأثمان أسرع من ارتفاع الأجور ، ووقع عبء هذا الانقلاب على كاهل الفقراء :

وازدهرت الصناعة وتلقت محاجر بنتلكس مصانع الفخار فى السرمكس طلبات من عالم بحر إيجة كله . وجمع بعضهم ثروات طائلة بشراء منتجات الصناع اليدويين أو المصانع الصغيرة بأثمان بخسة وبيعها بعدئذ بأغلى الأثمان فى الأسواق المحلية أو الخارجية . وسرعان ما تضاعف عدد المصارف المالية فى أثينة تبعاً لنمو التجارة وتجمع الثروة النقدية بدل الثروة العقارية . وتلقت هذه المصارف كثيراً عن النقود أو الذخائر القيمة لحفظها لديها ، ولكن يلوح أنها لم تكن تؤدى فوائد من هذه الودائع . وسرعان ما وجد أصحاب المصارف أن هذه الودائع لا تسترد كلها فى وقت واحد فى الظروف العادية ، فشرعوا يقرضون المال بفوائد عالية ، وقتصروا فى بادئ الأمر على إقراض المال دون الاشتغال بوسائل الائتمان الأخرى ، فكانت تضمن عملاءها ، وتحصل لهم مطلوباتهم ، وتقرض النقود بضمان العقار أو النفائس ، وتمد السفن التى تنقل البضائع بحاجتها من المال . وكان فى وسع التاجر ، بفضل هذه المصارف وأكثر من هذا بفضل القروض التى يقدمها الأفراد مجازفة منهم ومضاربة بلحق الأرباح الطائلة ، أن يستأجر سفينة ينقل عليها بضاعته إلى إحدى الأسواق الأجنبية ، ويشترى منها بدل هذه البضاعة شحنة أخرى ، إذا وصلت إلى بيرية بقيت فيها ملكاً لأصحاب الديون حتى يستردوا ديونهم[12] : ولما تصرم بعض القرن الرابع نشأ نظام من نظم الائتمان الحقيقى : فشرع

أصحاب المصارف يصدرون خطابات الاعتماد ، والأذون المالية ، والتحاويل المصرفية بدل أن يقدموا النقود ؛ وبهذه الطريقة أصبحت الثروة تنتقل من عميل إلى عميل بتدوينها فى سجلات المصارف لا غير(١٣) . وكان رجال الأعمال أو أصحاب المصارف يصدرون السندات للحصول على القروض التجارية ، حتى صارت هذه السندات جزءاً كبيراً من كل شركة . وكان لبعضهم — كالمعتوق پاسيون مثلا — صلات مالية متشعبة ، واشتهروا بين الناس بأمانتهم ونزاهتهم فوثقوا بهم ، وكانت سنداتهم موضع الثقة فى جميع بلاد اليونان . وكان لمصرف پاسيون Pasion أقسام متعددة يعمل فيها عدد كبير من الموظفين معظمهم من الأرقاء ، ويحتفظ بطائفة كبيرة من السجلات المختلفة الأنواع تدون فيها كل عملية مالية بعناية فائقة جعلت فى المحاكم أدلة لا يقبل الطعن فيها . ولم يكن إفلاس المصارف أمراً غير مألوف ، ويحدثنا المؤرخون عما كان يحدث من « ذعر » مالى يغلق فيه مصرف بعد مصرف أبوابه(١٤) . وكانت توجه أحياناً إلى المصارف ، ومنها أعظمها نفوذاً ، تهم خطيرة من سوء استعمال ما آل إليها من سلطان ، وكان الناس ينظرون إلى رجال المصارف نظرة يجتمع فيها من الحسد والإعجاب ، والكراهية مثل ما يجتمع فى نظرة الفقراء إلى الأغنياء فى جميع العصور(١٥)

وأنتج تبدل الثروة من عقارية إلى منقولة كفاحاً شديداً للحصول على المال ، وكان لا بد للغة اليونانية من أن تخترع لفظاً تعبر به عن هذه الشهوة الجامحة للحصول على « أكثر فأكثر » من المال ، فأطلقت عليها لفظ « بليونكسيا Pleonexia » ولفظاً آخر يعبر عن الانهماك فى طلب الثراء « كرماتستيكى Chrematistike » . وأخذت السلع والخدمات من ذلك الوقت تقدر قيمتها بالمال ؛ بل إن الناس أنفسهم أصبحوا يقدرون به وبما يمتلكون منه ، وأصبحت الثروات تتكون ثم تزول بسرعة لا عهد للناس بها ، وتنفق فى مظاهر من البذخ لو شهدتها أثينة فى عصر پركليز لارتاعت واهتزت منها مشاعرها . فأخذ « الأثرياء المحدثون » (وكان لهم

عند اليونان اسم خاص هو نيوبلوتوى neoplutoi) يشيدون البيوت الكثيرة الزخرف ، ويزينون نساءهم بالملابس والجواهر الغالية ، ويفسدونهن بكثرة الخدم ، وأصبح تقديم أغلى أصناف المأكل والمشرب للضيوف دون غيرها من المأكوت والمشروبات هو القاعدة المقررة المألوفة(١٦) .

وانتشر الفقر وسط هذه الثروة الطائلة ، ذلك بأن حرية التبادل وأنواعه المختلفة اللتين أمكنتا مهرة الناس من جمع المال جعلتا السذج منهم يفقدونه أسرع مما كانوا يفقدونه من قبل ، فكان الفقراء فى نظام الاقتصاد التجارى الجديد أفقر نسبيا مما كانوا فى أيام استرقاقهم فى أملاك الإقطاعيين ؛ فكان الفلاحون فى الريف يكدحون ليحصلوا بكدحهم وعرقهم على قليل من الزيت أو الخمر ؛ وفى الحواضر ظلت أجور العمال الأحرار منخفضة المستوى بسبب منافسة الأرقاء ؛ وكان مئات من المواطنين يعتمدون فى معيشتهم على الأجور التى ينالونها نظير حضور جلسات الجمعية أو المحاكم ؛ ولم يكن آلاف من الناس يجدون طعاما إلا ما تقدمه لهم المعابد أو الدولة ، ولا يملكون شيئاً . وفى عام ٤٣١ وبلغ عدد من لا يملكون شيئاً قط من الناخبين (دع عنك عدد السكان بوجه عام) خمسة وأربعين فى المائة من مجموعهم الكلى ، فلما حلت سنة ٣٣٥ ارتفعت هذه النسبة إلى سبعين وخمسين فى المائة(١٧) . ونقدت الطبقات الوسطى ، التى كانت لكثرة عددها وسلطانها تحفظ التوازن بين الأشراف والعامة ، جزءاً كبيراً من ثروتها ، ولم يعد فى وسعها أن تتوسط بين الأغنياء والفقراء ، بين المتحفظين الشـديدى العناد والخياليين المتطرفين ، وبذلك انقسم المجتمع الأثينى إلى « مدينتى » أفلاطون — « إحداهما مدينة الفقراء والأخرى مدينة الأغنياء ، وكلتاهما فى حرب مع الأخرى »(١٨) . وأخذ الفقراء يضعون الخطط لسلب مال الأغنياء بالتشريع أو الثورة ، كما أخذ الأغنياء ينظمون أنفسهم جماعات لاتقاء شر الفقراء . ويقول أرسطاطاليس إن المنتمين إلى بعض النوادى الجركية كان كل منهم يقسم بأن « أكون عدو الشـعب »

(أى العامة) « وأن أوذيهم فى المجلس بكل ما أستطيع من الأذى »[١٩] . وقد كتب إسقراط حوالى عام ٣٦٦ يقول : « لقد أصبح الأغنياء ينفرون من سائر الطبقات الأخرى نفوراً يفضلون معه أن يلقوا بثروتهم فى البحر عن أن يعينوا بشىء منها المحتاجين على حين أن الرقيق الحال يسرهم أن ينتهبوا أموال الأغنياء أكثر مما يسرهم العثور على كنز ثمين »[٢٠] .

وانحاز عدد متزايد من أفراد الطبقات المتعلمة إلى جانب الفقراء[٢١] . ذلك بأنهم كانوا يحتقرون التجار ورجال المصارف لما بدا لهم من أن ثروتهم تتناسب تناسبا عكسا مع ثقافتهم وأذواقهم . وحتى الأغنياء من هؤلاء العلماء أخذت تدور بخلدهم أفكار شيوعية . وكان پركليز قد اتخذ من الاستعمار صمام أمان ليقلل به حدة النزاع بين الطبقات[٢٢] ؛ ولكن ديونيشيوس كان يسيطر على الغرب ، ومقدونية كانت تمد أملاكها فى الشمال ، فأخذت الصعاب تزداد فى سبيل فتح أثينة بلاداً جديدة والاستقرار فيها . واستحوذ الفقراء فى آخر الأمر على جميع السلطة فى الجمعية وشرعوا يقررون مصادرة أموال الأغنياء ويحولونها إلى خزائن الدولة ، لتوزعها من جديد على المحتاجين والناخبين عن طريق المشروعات الحكومية والأجور[٢٣] . وأخذ رجال السياسة يبذلون كل ما فى وسعهم من جهود ويستخدمون كل ما وهبوا من ذكاء ليكشفوا عن موارد جديدة لزيادة إيراد الدولة ، فضاعفوا الضرائب غير المقررة ، والضرائب الجمركية على الواردات والصادرات ، وضريبة الواحد فى المائة على نقل الملكية العقارية ، وظلوا فى وقت السلم يجبون الضرائب غير الاعتيادية التى قررت زمن الحرب ، وأخذوا يطالبون بالتبرعات « الاختيارية » ، وفرضوا على الأغنياء « فروضا » أو « خدمات » جديدة متزايدة لتمويل المشروعات العامة من أموالهم الخاصة . وكانوا يلجأون بين الفينة والفينة إلى مصادرة الأموال ونزع الملكيات ، ووسعوا نطاق ضريبة الإيراد حتى شملت مستويات من الثروة أدنى مما كانت تشملها من قبل[٢٤] ،

وكان فى وسع كل من يلقى عليه عبء إحدى الخدمات العامة أن يستعين بالقانون لكى يرغم غيره على أدائها إذا استطاع أن يثبت أن هذا الممول الثانى أكثر منه ثروة ، وأنه لم تفرض عليه خدمة ما فى خلال سنتين . وعملوا على تسهيل جميع الإيراد بتقسيم دافعى الضرائب إلى مائة جماعة من الشركاء . فكان يطلب إلى أغنى الأعضاء فى كل جماعة أن يؤدوا فى بداية كل سنة ضرائبية جميع الضريبة المفروضة على هذه الجماعة طوال السنة ، ثم يترك لهم بعدئذ أن يجبوا فى خـــلال السنة ما يخص غيرهم من الأعضاء بما يرونه من الوسائل .

وكانت نتيجة هذه الفروض أن أخذت الجماعات والأفراد تخفى ثروتها وإيرادها إخفاء تاماً ، وانتشر التهرب من الضرائب بين الناس جميعاً ، وتفننوا فى أساليبه تفنن الدولة فى فرضها وجبايتها . وفى عام ٣٥٥ عين أندروتيون Androtion على رأس فرقة من رجال الشرطة مهمتها البحث عن الإيرادات المخبوءة ، وجباية الضرائب المتأخرة ، وحبس الذين يفرون من الضرائب ، فكانت تكبس البيوت وتضادر الأمتعة ، ويلقى الرجال فى السجون . ولكن الثروة مع ذلك ظلت تختفى أو تذوب . وقال إسقراط الشيخ الغنى الغاضب فى عام ٣٥٣ يشكو مما فرض عليه من خدمات : « لما كنت فى صباى ، كانت الثروة تعد من الأشياء المأمونة التى يعجب بها الناس ، حتى كان الواحد منا يتظاهر بأن لديه أكثر مما يملك فعلا . . . أما الآن فقد أصبح من واجب كل إنسان أن يدفع عن نفسه تهمة الغنى ، كأن هذا أشنع الجرائم »[٢٥] . ولم تكن الطريقة التى اتبعت فى غير أثينة لمنع تركيز الثروة تستند إلى القانون كما كانت تستند إليه فيها . من ذلك أن المدينين فى متلينى قتلوا دائنيهم جملة بحجة أنهم جياع ، وأن الدمقراطيين فى أرغوس (٣٧٠) انقضوا فجاءة على الأغنياء وقتلوا منهم ألفا ومائتين ، وضادروا أملاكهم ، وعقدت الأسر الغنية فى غير هذه من الدول التى كان العداء قائماً بينها لغير هذا من الأسباب حلفاً سرياً تعهدت فيه أن يساعد بعضها بعضاً إذا قامت

فى إحداها ثورات شعبية . وأخـــذت الطبقات الوسطى تحذو حذو الطبقات العليا فى عدم الثقة بالدمقراطية وترى أنها حسد أتيح له السلطان ، كما أخذ الفقراء يفقدون ثقتهم فيها ويرونها مساواة زائفة بين الناخبين تنقضها الفروق الهائلة بين الثروات . وقد تركت هذه الأحقاد المريرة بين الطبقات بلاد اليونان منقسمة على نفسها داخلياً ودولياً حين انقض عليها فليب ، حتى لقد رحب بقدومه كثيرون من الأغنياء فى المدن اليونانية ، ورأوا أنه لولاه لما كان هناك مفر من اندلاع لهيب الثورة فى أرجائها(٣٦) .

وسار الانهيار الخلقى مع ازدياد الترف واستنارة العقل جنباً إلى جنب ، واعتزت العامة بخرافاتها واستمسكت بأساطيرها ، فقد كانت آلهة الأولمبس تلفظ أنفاسها الأخيرة ولكن آلهة أخرى كانت تولد ، فكانت أرباب غريبة مثل إيزيس وأمون ، وأتيس ، وبنديس ، وسبيل ، وأدنيس تستورد من مصر وآسية ؛ وجمع انتشار الأرفية عباداً جدد للديونشس فى كام يوم . ولم يكن للدين التقليدى القديم فائدة تذكر لطبقة الملاك الوسطى النصف الأجنبية الآخذ شأنها فى الارتفاع ، فلم تكن آلهة المدينة التى ترعاها تنال من هذه الطبقة إلا الاحترام الصورى الرسمى ، ولم تعد توحى إلى أفرادها بالمبادئ الخلقية أو الإخلاص للدولة والولاء لها(*) . وكافحت الفلسفة لكى تجد فى الولاء السياسى ومبادئ الأخلاق الطبيعة بديلا من الأوامر الإلهية ، أو أن تتخذ منها رباً يرقب الناس من علٍ ، ولكن قل من المواطنين من كان يهمه أن يعيش عيشة البساطة السقراطية أو عيشة رجل سقراط السامى « ذى العقل العظيم » .

ولما فقد دين الدولة سلطانه على الطبقات المتعلمة زاد بالتدريج تحرر الأفراد

(*) يقول أفلاطون (فى القوانين صفحة ٩٤٨) : « والآن وفى الناس طائفة لا تؤمن قط بوجود الآلهة ... أصبح الواجب وضع شرائع تستند إلى العقل وتضع حداً للأيمان التى تقسمها كلتا الطائفتين » .

(شكل ٤٠) نقش بارز من ضريح هنكرنس (المتحف البريطانى)

من القيود الأخلاقية القديمة — فتحرر الابن من سلطان أبويه ، وتحرر الذكور من الزواج ، وتحررت المرأة من الأمومة ، وتحرر المواطن من التبعة السياسية . وما من شك فى أن أرسطوفان قد بالغ فى وصفه لهذه التطورات ، وإذا كان أفلاطون ، وأكسانوفون ، وإسقراط كلهم يتفقون معه فى رأيه ، فإنهم كانوا جميعاً من المحافظين الذين ترتعد فرائصهم من مثال الجيل الناشئ الجديد . وتحسنت أخلاق الناس فى الحرب خلال القرن الرابع ، وجاءت موجة من الإنسانية المستنيرة أعقاب تعاليم يوريديز وسقراط والمثل الذى ضربه للناس أجسلوس[٢٧] . ولكن الآداب والجنسية السياسية ظلت سائرة فى طريق الانهيار ، وزاد عدد العزاب والسرارى وأصبحت الصلات بين هؤلاء وأولئك هى الطراز الحديث الذى يهواه الناس ، كما أن الاتصال الحر بين الرجال والنساء أصبحت له الغلبة على الزواج الشرعى[٢٨] . انظر مثلا إلى هذا السؤال الذى يسأله أحد الأشخاص فى مسلاة ألفت فى القرن الرابع : « أليست الحظية مرغوباً فيها أكثر من الزوجة ؟ ولم لا ؟ إن إحداهما فى جانبها القانون الذى يرغمنا على الاحتفاظ بها ، مهما نكن كارهين لها ، أما الأخرى فهى تعلم أن من واجبها أن تتسلط على الرجل بحسن سلوكها ، وإلا فإن عليها أن تبحث لها عن رجل غيره[٢٩] » وعلى هذا النحو عاشر بركسثليز ومن بعده هيبريديز Hypereides فرينى Phryne ، وعاشر أرستبوس لئيس Lais ، وعاشر أستلبو Stilpo نكريتى Nikaaete ، وعاشر ليسياس متيرا Metaneira ، وعاشر إسقراط الصارم لجسكيوم Lagiscium[٣٠] . وفى ذلك يقول ثيوبمبس مبالغاً فى قوله كعادة رجال الأخلاق : « لقد كان الشبان يقضون كل أوقاتهم بين السرارى والقيان ، أما الذين هم أكبر من هؤلاء قليلا فكانوا منهمكين فى الميسر والفسق ، وكان الناس كلهم ينفقون على المآدب العامة والملاهى أكثر مما ينفقونه على الأعمال اللازمة لحفظ كيان الدولة ورعاية مصالحها[٣١] »

وأصبح تحديد عدد أفراد الأسرة تحديداً اختيارياً هو الطراز العصرى فى ذلك الوقت ؛ وكانوا يصلون إلى هـــذا الغرض بمنع الحمل ، أو الإجهاض ، أو قتل الأطفال : ويقول أرسطاطاليس إن بعض النساء كن يمنعن الحمل بطلاء جزء الرحم الذى يسقط عليه منى الرجل بزيت شجر الأرز ، أو بمرهم الرصاص . أو الكندر الممزوج بزيت الزيتون(*) »[٣٢].

وكانت الأسر القديمة سائرة فى طريق الانقراض فلم تكن توجد ، على حد قول إسقراط ، إلا فى قبورها ؛ وأخذت الطبقات الدنيا يتضاعف عدد أفرادها ، أما طبقة المواطنين فى أتكا فقد نقص عددها من ٤٣٫٠٠٠ فى عام ٤٣١ إلى ٢٢٫٠٠٠ فى عام ٤٠٠ وإلى ٢١٫٠٠٠ فى عام ٣١٣[٣٣] . ويقابل هذا نقص فى عدد المواطنين الذين كانوا يجندون للخدمة العسكرية ؛ ويرجع بعض هذا النقص إلى مذابح الحرب ، وبعضه إلى قلة من لهم فى الدولة أملاك يتحتم عليهم الدفاع عنها ، وبعضه إلى رغبة الناس عن الخدمة العسكرية . ذلك أن حياة الدعة والانصراف إلى العناية بالشئون المنزلية ، والانهماك فى الأعمال التجارية والصناعية ، وطلب العلم ، كل ذلك قد حل محل حياة الرياضة البدنية ، والتربية العسكرية ، والعناية بالشئون العامة ، وهى الحياة التى كان يألفها الناس فى عهد پركليز[٣٤] . فأما الرياضة فقد أصبحت حرفة ، وصار المواطنون الذين كانوا فى القرن السادس يملأون مدارس التدريب الرياضية يقنعون الآن بأن يجهد غيرهم أنفسهم بالنيابة عنهم ، وحسبهم هم أن يشاهدوا استعراض المحترفين . وكان بعض الشبان يتلقون بعض الدروس فى فن الحرب ، ولكن الكبار كانوا يجدون عشرات من الطرق للهرب من الخدمة العسكرية . وأضحت الحرب نفسها مهنة بسبب ما دخل عليها من التعقيدات الفنية ، تحتاج إلى رجال مدربين

(*) إذا شاء القارئ أن يعرف استعمال زيت الزيتون لهذا الغرض ذاته فى الوقت الحاضر فليطلع على كتاب التاريخ الطبى لمنع الحمل **Medical History of Contraception** تأليف هيمز **Himes** ص ٨٠ .

لها تذريباً خاصاً يستغرق وقتهم كله ؛ وكان لا بد من استبدال الجنود المرتزقة بالمحاربين المواطنين ، وكان هذا نذيراً بأن زعامة بلاد اليونان لن تلبث أن تنتقل من رجال السياسة إلى رجال الحرب . وبينا كان أفلاطون يتحدث عن الملوك الفلاسفة ، كان الملوك العسكريون ينشئون تحت سمعه وبصره . وكان مرتزقة اليونان يبيعون أنفسهم إلى القواد سواء كانوا من اليونان أو « البرابرة » بلا تفريق بين هؤلاء وأولئك ؛ ولقد حاربوا فى الجيوش التى غزت بلاد اليونان بقدر ما حاربوا دفاعاً عنها ، وشاهد ذلك أن الجيوش الفارسية التى واجهها الإسكندر كانت ملأى باليونان ؛ فلم يكن الجنود وقتئذ يسفكون دماءهم دفاعا عن بلادهم ، بل كانوا يسفكونها فى سبيل من يؤدى لهم أكبر الأجور .

وظل الفساد السياسى والاضطراب اللذان أعقبا موت بركليز سائرين فى طريقهما خلال القرن الرابع ، إذا استثنينا من ذلك حكم يكلديز الطاهر النزيه (٤٠٣) ، وإدارة ليقورغ المالية (٣٣٨ — ٣٢١) . فالرشوة مثلا كان يعاقب عليها ، حسب نص القانون ، بالإعدام ؛ لكن إسقراط يقول إن المرتشى كان يجزى على ارتشائه بالترقى فى المنصب العسكرية والسياسية . ولم يجد الفرس أية صعوبة فى إرشاء ساسة اليونان وحملهم على أن يشنوا الحرب على الدول اليونانية أو على مقدونية ، وحتى دمستين نفسه أصبح فى آخر الأمر مرآة تنعكس عليها أخلاق أهل زمانه . لقد كان من أنبل الأفراد فى جماعة من أحط الجماعات فى أثينة — أعنى جماعة الخطباء المأجورين الذين صاروا فى ذلك القرن محامين وساسة محترفين . ومن هؤلاء الناس من كانوا مثل ليقورغ شرفاء معقولين ، ومنهم من كانوا مثل هيردين ذوى شهامة ومروءة ، ومنهم من لم يكونوا خيراً مما وجب عليهم أن يكونوه ؛ وإذا جاز لنا أن نصدق ما يقوله عنهم أرسطاطاليس فقد كان منهم من تخصص فى إبطال نصوص الوصايا[٣٦] . وجمع الكثيرون منهم ثروات طائلة بانتهاز الفرص السياسية وبالتهريج والخطابة فى الجماهير .

وانقسم الخطباء المأجورون أحزاباً ، ومزقوا الهواء بحملاتهم ، ونظم كل حزب لنفسه بحانا ، ووضع له كلمات سر ، وعين له وكلاء ، وجمع له مالا . وكان الذين يؤدون نفقات هذه الأعمال كلها يعترفون صراحة بأنهم « سيستردونها ضعفين »[٣٧] .

وكانت الروح الوطنية تضعف كلما زادت السياسية قوة واستنفدت مرارة الانقسام كل الجهود العامة والوفاء للوطن ، فلم تترك للمدينة من هذه الجهود وذلك الإخلاص إلا القليل الذى لا يغنى ، وكان دستور كليستنيز ، والنزعة الفردية التى أثارتها التجارة والفلسفة ، قد زعزعا كيان الأسرة ، وحررا الفرد ؛ وكأنما أراد الفرد الحر وقتئذ أن يثأر للأسرة مما أصابها من انحلال فهوى بمعوله على الدولة يقوض أركانها .

وأراد الدمقراطيون المنتصرون فى عام ٤٠٠ ق . م أو حواليه أن يضمنوا حضور المواطنين الفقراء فى الإكليزيا ، وأن يمنعوا بذلك ذوى الأملاك أن تكون لهم السيطرة عليها ، فجعلوا حضور الجمعية هو الآخر عملا من الأعمال التى يؤجر الناس عليها . وكان كل مواطن فى بادئ الأمر يؤجر على حضور الجلسة أبلة (١٧/٢ من الريال الأمريكى) ، ولما زادت نفقات المعيشة زيد هذا الأجر إلى أبلتين ، ثم إلى ثلاث أبلات ، وظل يزداد حتى كان فى زمن أرسطاطاليس درخمة (أى ريالا أمريكيا) عن اليوم الواحد[٣٨] . ولقد كان هذا فى حد ذاته تدبيرا معقولا لا غبار عليه ، لأن المواطن العادى كان يكسب فى أواخر القرن الرابع درخمة فى كل يوم ؛ ولم يكن ينتظر منه أن يترك عمله دون أن يعوض عن تركه . وما لبثت هذه الخطة أن جعلت للفقراء الأغلبية فى الجمعية ، ويئس الأغنياء من الانتصار فيها . فزاد إعراضهم عنها تدريجاً ، وامتنعوا عن حضور جلساتها . وعدل الدستور فى عام ٤٠٣ وقصر حق التشريع على هيئة مكونة من خمسة مشترعين nomothetei يختارون من بين المواطنين الذين انتخبوا بالقرعة ليكونوا

قضاة ، ولكن هذا التعديل لم تكن له أقل فائدة فى الحد من طغيان الطبقات الدنيا . ذلك أن هذه الهيئة الجديدة انحازت هى الأخرى إلى جانب العامة ، والانتقاص من سلطانه . ويبدو أن مستوى الذكاء فى الجمعية قد نقص فى القرن الرابع ، ولعل منشأ هذا النقص هو أداء الأجور على حضور جلسات الجمعية . نقول هذا ببعض التحفظ لأن الذين نعتمد عليهم فى هذا القول هم الرجعيون المتحيزون أمثال أرسطوفان وأفلاطون[٣٩] . ويقول إسقراط إن أعداء أثينة هم الذين يجب عليهم أن يؤدوا الأجور لحضور جلسات الجمعية حتى يكثر اجتماعها ، وذلك لكثرة ما تركبه من الأغلاط[٤٠] فى أعمالها .

وخسرت أثينة بسبب هذه الأغلاط إمبراطوريتها وحريتها جميعا . ذلك أن الحرص الشديد على المال والسلطان الذى قوض أركان الحلف الأولى قد دك وقتئذ قواعد الحلف الثانى أيضاً ، فقد شعرت أثينة بعد سقوط اسپارطة فى لكترا أن فى وسعها الآن أن توسع أملاكها ، وكانت وهى تنظم إمبراطوريتها الجديدة قد قطعت على نفسها عهداً ألا تسمح للرعايا الأثينيين بامتلاك أرضين خارج حدود أتكا[٤١] . ولكنها بعد أن فتحت ساموس ، والكرسنيز التراقية ، ومدائن پدنا ، وپوتيدبا ، وميتونى على سواحل مقدونية وتراقية استعمرتها على أيدى المواطنين الأثينيين . واحتجت على ذلك الدول المتحالفة معها وانسحب الكثير منها الحلف . واستخدمت أثينة وسائل القسر والعقاب التى استخدمتها من قبل فى القرن الخامس ، ولكنها لم تجن من ورائها فائدة فى هذه المرة كما لم تجن منها فائدة فى المرة السابقة . وكانت النتيجة أن أعلنت طبشيوز ، وكوس ، ودرس ، وبيزنطية فى عام ٣٥٧ « حرب » عصيان « اجتماعية » : ولما أن رفض تموثيوس Timotheus وأفكراتيز ، وهما قائدان من أعظم القواد الأثنين كفاية ، أن يهاجما الأسطول الثائر فى الهلسپنت أثناء عاصفة هوجاء ، اتهمتهم الجمعية

بالجبن ، وفرضت على تموثيوس غرامة باهظة لا قبل لأحد بأدائها قدرها مائة وزنة (٦٠٠ر٠٠٠ ريال أمريكى) . فلم يجـــد أمامه سبيلا إلا الفرار من البلاد ، وبرئ إفكرتيز ولكنه لم يقم لأثينة بخدمة ما فيما بقى من حياته . وأحبط الثوار كل ما بذلته من محاولات لإخضاعهم ، فاضطرت فى عام ٣٥٥ إلى أن توقع صلحا تعترف فيه باستقلال بلادهم ، وأضحت المدينة العظيمة بلا أحلاف ، ولا زعماء ، ولا مال ، ولا أصدقاء .

ولعل عوامل أخرى أدق وأخفى من العوامل السابقة كان لها أثر فى إضعاف أثينة . ذلك أن حياة الفكر تعرض للخطر كل حضارة تزدان بهذه الحياة . ففى المراحل الأولى من تاريخ الأمة قل أن يكون للتفكير وجود ، بل الذى يسود وينتشر هو العمل ، ويكون الناس فى هذه المرحلة صريحين ، محررين من عوامل الكبت جريئين فى مشاكساتهم وصلاتهم الجنسية . وكلما أرتقوا فى مدارج الحضارة وفرضت عليهم العادات ، والأنظمة ، والشرائع ، وقواعد الآداب والأخلاق ، قيودا تزداد على مر الأيام كبتاً للغرائز ، حل التفكير محل العمل ، والخيال محل الإقدام ، والاحتيال محل الصراحة ، والخفاء محل التعبير الصادق ، والعطف محل القسوة ، والشك محل اليقين ؛ وزالت الوحدة الأخلاقية التى يشترك فيها الإنسان البدائى مع الحيوان ؛ وأصبح السلوك مجزءا طابعه التردد ، والإدراك ، وتقدير العواقب ، وضعفت الرغبة فى القتال ، واستحالت ميلا إلى الجدل الذى لا يقف عند حد . وما أقل الأمم التى استطاعت أن تصل إلى الرقى العقلى والإحساس القوى بالجمال من غير أن تضحى فى سبيل ذلك بالقدر الكثير من رجولة أبنائها ووحدتها ، فلم تستطع صد الاقوام الهمج المعدمين الطامعين فى ثروتها : فحول كل رومة يحوم الغاليون ، وحول كل أثينة يحوم المقدونيون .

الفصل الرابع

نهضة سراقوصة

كانت سراقوصة طوال القرن الرابع من أكبر المدن اليونانية ثروة وأعظمها قوة ، رغم ما كان ينتابها من الاضطرابات السياسية الكثيرة . وكان ملكها ديونيشيوس الأول مجرداً من الضمير ، خائنا غدارا ، محتالا مغروراً ، ولكنه كان أقدر رجال زمانه فى الشئون الإدارية . حول هذا الرجل جزيرة أرتيجيا Ortygia إلى قلعة حصينة اتخذها مسكنا له ، وسور الطريق الذى يوصلها بأرض القارة ، فأصبح مركزه فيها أمنع من عقاب الجو ، ثم ضاعف أجور جنده ، وقادهم بنفسه إلى انتصارات هينة ، فحبب نفسه إليهم وكسب ولاءهم ؛ فاستطاع البقاء على العرش ثمانية وثلاثين عاما . ولما أن ثبت قواعد حكمه استبدل بسياسة القسوة التى نهجها فى بداية أمره سياسة رحيمة استرضى بها الأهلين ، وبسط على البلاد حكماً استبدادياً طابعة العدالة والمساواة(*) ، وأقطع ضباطه وأصدقاءه أجزاء من أحسن الأراضى وأعظمها خصبا ، وخص جنوده بجميع المساكن فى أرتيجيا والطريق الموصل إليها إلا القليل النادر منها ؛ ووزع كل ما بقى من أرض سراقوصة وما حولها على سكان المدينة الأحرار منهم والأرقاء من غير تمييز بينهم . وبهديه وإرشاده ازدهرت سراقوصة ، وإن كان قد فرض عليها من الضرائب ما لا يكاد

(*) ولما حكم على فنتياس Phintias (المسمى خطأ بيتياس Pythias) الفيثاغورى بالإعدام لاشتراكه فى إحد المؤامرات ، استأذن فنتياس فى أن يذهب إلى منزله يقضى فيه يوما ينظم فيه شئونه . وعرض صديقه دامون Damon (وهو غير دامون معلم الموسيقى لبركليز وسقراط) أن يكون رهينة له حتى يعود ، وعرض أن يعدم إذا لم يعد فيتياس . ولكن فنتياس عاد ودهش ديونيشوس كما دهش تايلون فيما بعد من ان يبلغ الإخلاص بين الأصدقاء هذا المبلغ ، فعفا عن فنتياس ، ورجاه أن يكون هو زميلا لهما فى هذه الصداقة المتينة .

يقل عما فرضته الجمعية على الأثينيين . ولما أن أسرفت نساء المدينة فى زينتهن أعلن أن دمتر قد جاءته فى الحلم وأمرته أن يجمع حلى النساء كلها ويودعها فى معبدها . وصدع الملك بأمر الإلهة ، وصدعت به كذلك معظم النساء ؛ ثم ما لبث أن « اقترض » الحلى من دمتر ليمول بها حروبه(٤٣) .

ذلك أن خططه كلها كانت تهدف إلى إخراج القرطاجيين من صقلية . وقد آلمه وحز فى نفسه أن يستطيع هنيبال استخدام آلات التدمير القوية فى حصار سيلينس ، فجمع فى خدمته خيرة الصناع والمهندسين من بلاد اليونان القريبة ؛ وطلب إليهم أن يعملوا على تحسين عدد الحرب . وكان من بين ما اخترعه هؤلاء الرجال من آلات الهجوم والدفاع الجديدة المنجنيق الذى يقذف الحجارة الثقيلة وغيرها من القذائف ، وانتقل هذا الاختراع وغيره من المخترعات العسكرية من صقلية إلى بلاد اليونان واستخدمه فليب المقدونى . وأرسل يدعو لخدمته جنودا مرتزقة ، وأخذت دور الصنعة فى سراقوصة تخرج مقادير لا عهد للناس بها من الأسلحة والدروع تنفق مع عادات كل طائفة من طوائف الجند المختلفة ومع حذقها فى القتال . وكان المشاة قبل هذا الوقت هم الذين يقاتلون فى المعارك البرية لكن ديونيشيوس نظم فيالق كبيرة من الفرسان ، وأفاد من هذا أيضاً فليب والإسكندر . وأخذ فى الوقت نفسه يصب المال صبا لبناء مائتى سفينة معظمها من ذات الأربعة الصفوف أو الخمسة ، فأنشأ بذلك أسطولا ضخما لم تر له بلاد اليونان قبل ذلك الوقت مثيلا فى سرعته أو قوته .

ولم يحل عام ٣٩٧ حتى كان كل شىء على أهبة الاستعداد ، وأرسل ديونيشيوس بعثة إلى قرطاجة يطلب إليها أن تحرر جميع المدن اليونانية فى صقلية من سيطرة القرطاجيين ، وتوقع ألا يجاب إلى طلبه فدعا هذه المدن إلى خلع نير الحكم الأجنبى ، فاستجابت إلى دعوته ، وكانت لاتزال حاقدة على القرطاجيين ولم تنس ما ارتكبه فيها هنيبال من المذابح ، فأعدمت جميع من وقع فى

أيديهم منهم بعد أن أذاقتهم من ألوان العذاب ما لم يعذبه اليونان أحداً غيرهم من قبل ، ولم يدخر ديونيشيوس جهداً فى الحيلولة بينهم وبين هذا التعذيب لأنه كان يريد أن يبيع أسرى القرطاجيين فى أسواق الرقيق . ونقلت قرطاجة جيشاً كبيراً بقيادة هملكون Himilcon بطريق البحر ، ودارت الحرب بين الأمتين فى فترات متقطعة خلال أعوام ٣٩٧ ، ٣٩٢ ؛ ٣٨٣ ، ٣٦٨ . وانتهت هذه الحرب بأن استردت قرطبة كل ما استولى عليه ديونيشيوس من أملاكها ، وعادت الأمور بعد الدم المهراق كله إلى ما كانت عليه من قبل .

وكان ديونيشيوس فى هذه الأثناء قد وجه قوته الحربية لإخضاع المدن اليونانية فى الجزيرة ، وربما كان مدفوعا إلى هذا بحب السلطان ، أو بما كان يحس به من أنه لا سبيل إلى القضاء على سطان قرطاجة فى صقلية إلا إذا اتحدت كلها تحت حكومة واحدة . فلما تم له إخضاعها ، عبر الجزيرة إلى إيطاليا ، وأخضع رجيوم Rhegium وفرض سلطانه على جميع إيطاليا الجنوبية . ثم هاجم إترووريا واستولى على ألف وزنة من هيكلها القائم فى أجلا Agylla ، ووضع الخطط لنهب ضريح أبلو فى دلفى ، ولكن الأيام وقفت فى سبيله فلم تمكنه من تنفيذ خططه . فقد وأدت بلاد اليونان فى نفس ذلك العام (٣٨٧) حريتها فى الغرب ، ثم باعتها « بصلح الملك » إلى الفرس فى لشرق . وكان برنس Brennus والغاليون قد وقفوا ظافرين أمام أبواب رومة يدقونها دقاً . ، وكان البرابرة المحيطون بالعالم اليونانى يزدادون قوة فى كل مكان ، وكان ما حل بإيطاليا الجنوبية من التدمير على يد ديونيشيوس قد مهد السبيل للأهلين القاطنين حول المستعمرات أولا ، ثم للرومان أنصاف البرابرة بعدئذ ، لغزو هذه المستعمرات والاستيلاء عليها . وقام الخطيب ليسياس فى الدورة التالية من دورات الألعاب الأولمبية يدعو بلاد اليونان إلى الخروج على الطاغية الجديد ، فهاجت الجماهير الثائرة خيام رسل ديونيشيوس وأصمت آذانها عن الاستماع إلى أشعاره .

وهذه الطاعة الذى عرض على أهل رجيوم بعد أن تم له الاستيلاء عليها حريتهم إذا آتوه بكل ما يدخرونه من مال فدية لهم ، فلما جاؤوه به باعهم بيع الرقيق ، هذا الطاغية نفسه كان رجلا واسع الثقافة من أرباب السيف والقلم ، ولم يك فخره بقلمه أقل من فخره بسيفه . ولما أن طلب إلى الشاعر فلكينس رأيه فى شعره وأجاب بأنه غث لا قيمة له حكم عليه بالأشغال الشاقة فى المحاجر[٤٤] . على أن ديونيشيوس ، كان يناصر الآداب والفنون على الرغم من هذه الأعمال المثبطة ، وقد استضاف أفلاطون أثناء أسفاره فى صقلية وسره أن يستمتع لحظة بهذا الفيلسوف (٣٨٧) . وهناك قصة ذائعة نقلها ديوجانس ليرتيوس تقول إن الفيلسوف أخذ يطعن فى حكم الطغاة فرد عليه ديونيشيوس بقوله : « إن أقوالك أقوال عجوز محترف » ، فأجابه أفلاطون قائلا : « إن هذه اللغة هى لغة الطغاة » . ويقال إن ديونيشيوس باع أفلاطون فى سوق الرقيق ولكن أنسريز القيرونى لم يلبث أن افتداه[٤٥] .

ولم يقض على حياة الفيلسوف واحد من القتلة السفاحين الذين كان يخشى بأسهم بل قضى عليها شعره نفسه . وتفصيل ذلك أن مأساته افتداء هكتر نالت الجائزة الأولى فى عيد لينيا الأثينى عام ٣٦٧ . وسر ديونيشيوس من هذا الفوز سروراً جعله يحتفل بأصدقائه ويفرط فى الشراب ، فيصاب بالحمى ويموت .

وقبلت المدينة المغتاظة التى كانت قد ارتضته بديلا من الخضوع لقرطاجة ، قبلت أن يخلفه ابنه على العرش راجية الخير على يديه . وكان ديونيشيوس الثانى وقتئذ شاباً فى الخامسة والعشرين من عمره ، ضعيف الجسم والعقل ، فظن السراقوصيون الماكرون أنه لهذا السبب سيحكمهم حكماً رحيما يترك لهم فيه الحبل على الغارب . وكان له من عمه ديون Dion والمؤرخ فلستيوس مستشاران قديران . فأما ديون فكان رجلا واسع الثراء ولكنه جمع إلى ثرائه حبه للآداب والفلسفة ، وكان من أوفى تلاميذ أفلاطون وألصقهم به . وأصبح عضواً

فى المجمع العلمى وعاش فى داخل بيته وخارجه عيشة البساطة الفلسفية . وخطر بباله أن الطاغية الجديد الشاب اللدن العود سوف يتيح له الفرصة لأن يقيم على الأقل حكماً دستورياً يستطاع به توحيد صقلية بأجمعها وتمكينها بسبب هذه الوحدة من القضاء على سلطان القرطاجيين فيها ، هذا إذا لم يتمكن من أن يجعل منها « المدينة الفاضلة » التى وصفها له أفلاطون .

ودعا ديونيشيوس الثانى بناء على اقتراح ديون ، أفلاطون إلى بلاطه ، فلما قبل أفلاطون الدعوة تتلمذ عليه ديونيشيوس وصار من أتباعه . ومما لا شك فيه أن الشاب الطاغية أراد أن يظهر للفيلسوف خير طباعه ، فأخفى عليه إدمانه الخمر والعهر(٤٧) ، الذى جعل أباه يتنبأ أن الأسرة ستنقرض بموت ولده . وانخدع أفلاطون برغبة الشاب الظاهرة فى الفلسفة فقاده إليها من أصعب السبل — من سبيل العلوم الرياضية والفضيلة . وعلّم الحاكم ، كما علم كنفوشيوس دوق لو ، أن المبدأ الأول من مبادئ الحكم هو القدوة الصالحة ، وأنه إذا أراد أن يصلح شعبه ، فعليه أن يجعل نفسه أنموذجاً لهم فى الذكاء والنية الحسنة ، وشرعت الحاشية كلها تدرس الهندسة ، وتقف مذهولة سياسياً أمام خطوط مرسومة فى الرمل . ورأى فلستيوس أن مقام أفلاطون أصبح أعلى من مقامه ، فهمس فى أذن الطاغية أن ذلك كله لم يكن إلا مؤامرة أراد بها الأثينيون ، الذين عجزوا عن فتح سراقوصة بقوة الجيش والأسطول ، أن يستولوا عليها بعمل رجل واحد ، وأن أفلاطون بعد أن استولى على القلعة المنيعة بالرسوم والحوار ، سينزل ديونيشيوس عن عرشه ، ويجلس ديون مكانه . ووجد ديونيشيوس فى هذا الهمس فرصة قيمة للنجاة من متاعب الهندسة ، فنفى ديون ، وصادر أملاكه ، ووهب زوجته لرجل من رجال البلاط كانت ترهبه ، وغادر أفلاطون سراقوصة ، رغم تأكيد الطاغية له بأنه يحبه أشد الحب ، وانضم إلى ديون فى أثينة . وبعد ست سنين من ذلك الوقت عاد إلى سراقوصة استجابة لطلب الملك نفسه ، وألح عليه فى أن يستدعى ديون ولما

رفض ديونيشيوس رجاءه اعتزله أفلاطون وآوى إلى المجمع العلمى[٤٨] .

وفى عام ٣٥٧ جند ديون من بلاد اليونان القارِّية ، وكان وقتئذ فقيراً فى المال غنيًّا فى الأصدقاء ، قوة مؤلفة من ثمانمائة رجل أبحر بهم إلى سراقوصة ، ودخل فيها سراً فألفى الأهلين شديدى الرغبة فى تأييده . وكانت معركة واحدة نال فيها النصر ببسالته ، مع أنه كان وقتئذ فى سن الخمسين ، كافية لهزيمة جيش ديونيشيوس ، ودب الرعب من هولها فى قلب الملك الشاب فآثر الفرار إلى إيطاليا . وفى هذا الوقت عزلت الجمعية السراقوصية ديون من القيادة ، وكان هو الذى دعاه إلى الاجتماع ، خشية أن ينصب نفسه حاكماً بأمره . وكانت فى عملها هذا تجرى على ما طبع عليه اليونان من الاندفاع وعدم التبصر فى العواقب . وانسحب ديون فى سلام إلى اليونتيني ؛ ولكن جيوش ديونيشيوس شجعها تقلب الأحداث فهاجمت الجيش الوطنى على حين غفلة ، وبددت شمله . وأرسل الزعماء الذين كانوا قد عزلوا ديون من القيادة يطلبون إليه أن يعود مسرعاً ويتولى قيادة جيش الشعب ، فاستجاب إلى دعوتهم ؛ وانتصر على أعدائه مرة أخرى ، وعفا عن الذين قاوموه ، وأعلن قيام دكتاتورية مؤقتة قال إنها ضرورية لعودة النظام إلى البلاد ، وأبى أن يكون له حرس خاص مخالفا بذلك نصيحة أصدقائه ، وقال إنه « يفضل أن يموت على أن يعيش على حذر دائم من أصدقائه وأعدائه على السواء »[٤٩] . واحتفظ بدلا من هذا الحرس بحياته المتواضعة المعتدلة رغم ما كان يحيط به من الثراء وقوة السلطان .

ويقول فلوطرخس « إنه ، وإن كان قد نال ما يشتهيه من النجاح ، لم يكن يرغب فى أن ينال فائدة عاجلة أتاحها له حظّه الطيب . . . فاكتفى بقدر معتدل من الثراء راعى فيه جانب الاقتصاد ، وأدهش بذلك الناس جميعاً . وبينما كانت صقلية وقرطاجة وبلاد اليونان بأجمعها ترى أنه قد بلغ أعلى مراتب النعيم والثراء . ، وأن ليس بين الأحياء جميعاً من هو أعظم منه ، أو بين القواد

من هو أوسع منه شهرة فى البسالة والظفر ، كان يبدو فى حرسه ، وحاشيته ، وعلى مائدته ، أنه يشترك مع أفلاطون فى المجمع العلمى . ولا يعيش بين ضباطه المأجورين وجنوده المرتزقة الذين يجدون فى ملء بطونهم بلذيذ المأكل والمشرب والاستمتاع بلذائذ الحيـــاة عزاء لهم عن كدحهم المتواصل وما يتعرضون له من الأخطار »(٥٠)

وإذا أخذنا بقول أفلاطون فإن ديون كان يبغى إقامة ملكية دستورية ، وإلى إصلاح حياة السراقوصيين وأخلاقهم على مثال الحياة والأخلاق الإسپارطية ، وأن يعيد بناء المدن اليونانية المستعيدة أو المخربة فى صقلية ، وينشىء منها دولة موحدة ، حتى إذا تم له ذلك أخرج القرطاجيين من الجزيرة . ولكن السراقوصيين كانوا يحرصون أشد الحرص على النظام الدمقراطى . ولم يكونوا يتوقون إلى الفضيلة أكثر مما يتوق إليها ديونيشيوس الأول أو الثانى . فاغتال ديون صديق له ، وانطلقت على أثر اغتياله الفوضى من عقالها ، وأسرع ديونيشيوس بالعودة إلى سراقوصة ، واستولى مرة أخرى على اوتيجيا وعلى أزمة الحكم ، وسار فيه بالقسوة والفظاعة التى ينتظرها الإنسان من طاغية خلع عن عرشه ثم استرده .

وبعد ، فإن الأقدار تصيب أحياناً من لا يستحقها من الأفراد ، ولكنها قلما تفعل ذلك بالأمم . لقد استغاث السراقوصيون بأمهم كورنثة . وجاءت الاستغاثة فى وقت كان فيه كورنثى نبيل نبلا لا يكاد يصدقه العقل ينتظر أن تتاح له فرصة يظهر فيها بطولته. لقد كان تيموليون رجلا من الأشراف ، بلغ من حبه للحرية أنه لم يتردد فى قتل أخيه تموفانيز حين أراد هذا الرجل أن يقيم نفسه حاكماً مستبداً فى كورنثة . واستنزلت أمه اللعنة عليه عقاباً له على عمله هذا ، وأنبه عليه ضميره ، فاعتزل هذا القاتل الناس وآوى إلى الغابات ، ولكنه سمع وهو فى مأواه بحاجة سراقوصة إلى النجدة ؛ فخرج من ملجئه ، ونظم قوة من المتطوعين ، وأبحر بها إلى صقلية ؛ وقاد شرذمته

القليلة بمهارة لم يرجيش الملك معها بدأ من الاستسلام ، بعد أن ذاق البلاء من جراء براعته فى القيادة ، ومن غير أن يقتل من رجاله رجل واحد ، ومنح تيمليون الطاغية الذليل من المال ما يمكنه من العودة إلى كورنثة حيث قضى ما بقى من حياته يعلم فى المدرسة ويسأل الناس القوت فى بعض الأحيان(٥١) »

وأعاد تيمليون الدمقراطية ، وهدم الحصون التى جعلت أرتيجيا معقلا حصيناً للاستبداد ، ورد عنها غارة شنها القرطاجيون ، وأعاد الحرية والدمقراطية إلى المدن اليونانية . وبفضله ساد السلام وعم الرخاء صقلية جيلا من الزمان ، هرع إليها فى خلاله مستوطنون جدد من جميع أنحاء العالم اليونانى . وأبى مع ذلك أن يتولى منصباً عاماً ؛ بل اعتزل الحياة السياسية وفضل عليها الحياة الخاصة ؛ ولكن الدمقراطيات القائمة فى الجزيرة كانت تعرض عليه كل شئونها الكبرى تستنصحه وتعمل برأيه إيماناً منها بحكمته واستقامته . ولما اتهمه اثنان من « المرشدين » بسوء استخدام سلطته أصر على الرغم من احتجاج الشعب وإعلانه شكره له واعترافه بجميله ، أن يحاكم من غير محاباة حسب قانون البلاد ، وحمد الآلهة على أن عادت إلى صقلية حرية الكلام والمساواة أمام القانون . ولما مات فى عام ٣٣٧ حزنت عليه بلاد اليونان كلها وعدته من أعظم عظماء أبنائها .

الفصل الخامس

تقدم مقدونية

بينا كان تيمليون يعيد إلى الديمقراطية أنفاسها الأخيرة فى صقلية القديمة ، كان فليب يقضى عليها فى أرض اليونان القارية . لقد كانت مقدونية حين اعتلى فليبُ العرش ٣٥٩ لا تزال فى الأغلب الأعم بلاداً همجية يسكنها أقوام أشداء جبليون وذلك رغم كرم أركلوس وثقافته العالية ، والحق أنها وإن استخدمت اليونانية لغة رسمية لها لم تفد الحياة اليونانية طوال تاريخها بمؤلف أو فنان أو فيلسوف واحد .

وكان فليب قد أقام ثلاث سنين مع أقارب إيامينداس طيبة فاستقى منهم قدراً متوسطاً من الثقافة وقدراً عظيما من الأفكار الحربية . وكان يتصف بجميع الفضائل عدا فضائل الحضارة ، كان قوى الجسم والإرادة ، مولعاً بالرياضة البدنية ، وسيما ، وجملة القول أنه كان حيواناً عظيما ، يحاول بين الفينة والفينة أن يكون أثينيا مهذباً . وكان كابنه الشهير ذا مزاج حاد عنيف وكرم فائق ، مولعا بالحرب إلى حد كبير وبالشراب إلى حد أكبر . وكان يختلف عن الإسكندر فى مرحه وميله إلى الضحك ، ولى أحد الأرقاء منصباً كبيراً لأنه أدخل على قلبه السرور .. وكان يحب الغلمان كثيراً ، ولكنه يحب النساء أكثر منهم ، وتزوج أكبر عدد استطاعه منهن ، وحاول وقتاً ما أن يقتصر على زوجة واحدة هى أولمپياس الأميرة المولوسية Molossian الجميلة التى كانت تعيش على الفطرة والتى ولدت له الإسكندر ، ولكنه لم يلبث أن مال إلى غيرها ، فأخذت أولمپياس تدبر الانتقام منه إلى نفسها وكان أحب الناس إليه أشداء الرجال الذين يجازفون بأرواحهم طوال النهار ، ويقامرون معه ويبادمونه على الشراب إلى نصف الليل . وكان (إلى ما قبل

الإسكندر) أشجع الشجعان بلا منازع ، وخلف جزءاً من نفسه فى كل ميدان من ميادين القتال . وقد أعجب به دمستين وقال فيه : « يا له من رجل ! لقد خسر فى سبيل القوة والسلطان عيناً فقئت ، وكتفاً كسرت ، وذراعا وساقا أصيبتا بالشلل[٥٢] » . وكان ذا قريحة وقادة ، قادراً على أن ينتظر فرصته متربصاً ، وعلى أن يسير بعزم ثابت إلى هدفه مجتازاً فى سبيله كل ما يعترضه من صعاب . وكان فى سياسته لطيفا غدارا ؛ لا يبالى بأن يحنث فى وعده ، ويجدد هذا الوعد لساعته ؛ لا يعترف فى الحكم بالمبادئ الأخلاقية ، ويرى أن الكذب والرشوة بديلين رحيمين من القتل وسفك الدماء . ولكنه كان رحيما فى انتصاره وكان من عادته أن يعرض على اليونان المنهزمين شروطا أحسن مما يعرضها بعضهم على بعض . وقد أحبه كل من التقى به ، عدا دمستين العنيد ، ووصفوه بأنه أقوى رجال زمانه وأكثرهم طرافة .

وكانت حكومته ملكية أرستقراطية يدوم سلطان الملك فيها ما دام متفوقا فى قواه الجسمية أو العقلية ، وما دام أشراف البلاد راغبين فى معونته . وكان ثمانمائة من أمراء الإقطاع يكونون « صحابة الملك » وكان هؤلاء الصحابة من كبار الملاك الذين يحتقرون حياة الحواضر والزحام والكتب فإذا ما أعلن الملك الحرب برضاهم خرجوا من ضياعهم وهم أقوياء الأجسام صناديد ليوث غاب . وكانوا فى الجيش يؤلفون فرقة الفرسان ويمتطون صهوة الجياد المقدونية والتراقية القوية الشكيمة ، وقد دربهم فليب على أن يحاربوا جماعات متراصة يستطيعون إذا صدر إليهم أمر قائدهم أن يبدلوا حركاتهم العسكرية من فورهم كأنهم رجل واحد . وكان إلى جانب هؤلاء الفرسان مشاة من الصيادين والفلاحين الشعث منظمون فى « فيالق » ، يصوب ستة عشر صفا منهم رماحهم فوق رؤوس الصفوف التى أمامهم — ويضعونها فوق أكتافهم — وبذلك يكون كل فيلق أشبه بجدار من الحديد . وكان طول الرمح إحدى وعشرين قدما ،

وكان متزناً من مؤخرته فإذا شرعه صاحبه برز إلى الأمام خمس عشرة قدماً . ولما كان كل صف من الجند يتقدم ثلاث أقدام عن الذى يليه ، فإن رماح الخمسة الصفوف الأولى كانت تبرز أمام الفيلق كله ، وكانت رماح الثلاثة الصفوف الأولى تبرز أمام الفليق أطول من حراب أقرب المشاة اليونان التى لا تزيد على ست أقدام . وكان الجندى المقدونى بعد أن يقلف عدوه برمحه يحارب بسيف قصير ويقى رأسه ببيضة من نحاس ، وجسمه بدرع ، وساقيه بجرموقين ، وصدره بترس خفيف . ويأتى من وراء هـذا الفليق فرقه من الرماة على الطراز القديم يصوبون سهامهم فوق رؤوس حملة الرماح ، ومن وراء هؤلاء فرق الحضار بمناجيقها وكباشها المدمرة . ودرب فليب فى صبر وعزيمة هـذا الجيش المكون من عشرة آلاف جندى حتى جعله أعظم قوة محاربة شهدتها أوربا حتى ذلك الوقت ، وأعده للإسكندر كما أعد فردرك وليم جيشه لابنه فردرك الأكبر .

واعتزم أن يستخدم هذه القوة لتوحيد بلاد اليونان وإخضاعها لحكمه حتى إذا تم له ذلك استعان ببلاد هيلاس جميعها وعبر الهلسپنت وطرد الفرس من آسية اليونانية . ولكنه كان فى كل خطوة يخطوها نحو هذه الغاية يجد نفسه يعمل ضد حب اليونان للحرية ، وكان وهو يحاول أن يتغلب على هذه النزعة ينسى الغاية التى يعمل لها بهذه الوسيلة . ووقف فى حركته الأولى وجها لوجه أمام أثينة لأنه أراد أن يستولى على المدن التى ضمتها إلى أملاكها على ساحل مقدونية وتراقية . ولم تكن هـذه المدن تسد طريقه إلى آسية وحسب ، بل كانت فوق هذا تحتوى مناجم غنية من الذهب ، وكانت ذات تجارة رائجة فى مقدوره أن يفرض عليها الضرائب . وبينا كانت أثينة منهمكة فى « الحرب الاجتماعية » التى انتهت بها إمبراطوريتها الثانية ، استولى فليب على أمفيوليس (٣٥٧) ، وپدنا ، وبوتيديا (٣٥٦) ؛ ولما احتجت أثينة على هذا العمل العدوانى أجابها بالثناء على آدابها وفنونها ، وفى عام ٣٥٥ استولت على ميتونى ، وفقد عينه فى

حصارها ، وفى عام ٣٤٧ استولى على أولنثس بعد حرب طويلة استعين فيها بضروب كثيرة من البسالة والخداع . وتمت بهذه الأعمال السيطرة على الشاطئ الأوربى لبحر إيجة الشمالى ، ودخل خزائنه فى كل عام ألف وزنة من مناجم تراقية[٥٣] ، واستطاع أن يوجه تفكيره نحو اكتساب معونة بلاد اليونان .

وكان فليب قد حصل على المال الذى أنفقه فى حروبه ببيع آلاف من الأسرى فى أسواق الرقيق ، وكان من بينهم كثيرون من الأثينيين ، فنفرت منه قلوب الهلينيين ، وكان من حسن حظه أن المدن اليونانية كانت فى خلال هذه السنين تنهك قواها فى « حرب مقدسة » ثانية (٣٥٦–٣٤٦) سببها انتهاب الفوسيين كنوز دلفى . وأيد الاسپارطيون والأثينيون الفوسيين ، وحاربت العصبة الأمفكتيونية : بوئوتية ؛ ولكريس ، ودوريس ، وتساليا ، ضدهم. ولما دارت الدائرة على هذه العصبة استغاث مجلسها بفليب ، ووجد الفرصة ملائمة له فجاء مسرعا مخترقاً الطرق الجبلية المفتوحة أمامه ؛ وأخذ الفوسيين على غرة (٣٤٦) ، وضُم إلى الحلف الأمفكتيونى الدلفى ، ونودى به حاميا للضريح المقدس ، وقبل الدعوة التى وجهت إليه لرياسة اليونان جميعا فى الألعاب البيثية . وهنا امتد بصره إلى دول البلوپونيز المنقسمة على نفسها ، وأحس أن فى استطاعته أن يحملها جميعاً ، عدا اسپارطة الضعيفة ، على أن ترتضيه زعيما لحلف يونانى فى مقدوره أن يحرر جميع اليونان فى الشرق والغرب . ولكن أثينة استمعت إلى أقوال دمستين فلم تر فى فليب محرراً لها ، بل رأته ساعياً لاستعبادها ، وقررت أن تحارب لتحتفظ للمدن اليونانية بالسيادة التى كانت تحرص عليها ، وبالدمقراطية الحرة التى جعلتها نور العالم الوضاء .

الفصل السادس

دمستين (دمستنيز)

إن تمثال الخطيب العظيم القائم فى متحف الفاتيكان ليعد من الروائع الفنية الواقعية التى أخرجها العصر الذى انتشرت فيه الحضارة اليونانية خارج بلاد اليونان الأصلية ؛ فوجهه يبدو عليه الهم والقلق ، كأن كل نصر أحرزه فليب قد أحدث غضناً جديداً فى جبهته ؛ والجسم نحيل منهوك ، ومظهره مظهر الرجل الذى يوشك أن يدعو الناس للأخذ بيده للدفاع عن قضية يرى أنه قد خسرها . وتكشف العينان عن حياة قلقة ، وتتنبئان بموت مدبر .

وكان أبوه صانع سيوف وأسرّة ، ترك له تجارة تبلغ قيمتها أربع عشرة وزنة (٨٤٫٠٠٠ ريال أمريكى) . واختار الوالد ثلاثة من الرجال ليديروا هذه الأملاك لصالح الغلام ، ولكنهم أنفقوها على أنفسهم بسخاء ، اضطر معه دمستين حين بلغ سن العشرين (٣٦٣) أن يقاضى الأوصياء عليه لكى يستعيد ما بقى من ميراثه . وأنفق معظم ما آل إليه فى تجهيز سفينة ذات ثلاثة صفوف من المجاديف وهبها للأسطول الأثينى ، ثم أخذ يعمل لكسب عيشه بكتابة الخطب للمتقاضين ؛ وكان أقدر على الكتابة منه على الكلام ، لأنه كان ضعيف الجسم عىّ اللسان . ويقول فلوطرخس إنه كان فى بعض الأحيان يعد دفاعاً لكلا الطرفين المتنازعين . وكان يعمل فى هذه الأثناء للتغلب على ما فيه من نقص طبيعى ، فكان يخاطب البحر وفمه مملوء بالحصباء ، أو يخطب وهو يصعد فوق الجبل . وكان مجداً فى عمله لا يشغله عنه إلا السرارى والغلمان . وقال أمين سره يشكو أمره : « ماذا عسى أن يفعل الإنسان بدمستين ؟ إن الشىء الذى قضى عاماً

كاملا يفكر فيه لتربكة امرأة واحدة فى ليلة واحدة[٥٤] » . وأصبح الرجل بعد جهود مضنية دامت عدة سنين أغنى المحامين فى أثينة ، يعرف دقائق هذا الفن ويقنع المستمعين إلى خطبه ، ولا يتقيد كثيراً بقواعد الأخلاق . وشاهد ذلك أنه دافع عن المصرفى فورميو طالباً تبرئته من تهم وجهها هو بعينها إلى الأوصياء عليه ، وكان يتناول أجوراً عالية من الأفراد نظير تقديم بعض القوانين للجمعية والدفاع عنها ، ولم يدفع عن نفسه التهمة التى وجهها إليه زميله هيبريديز وهى أنه كان يتلقى المال من ملك الفرس ليشعل نار الحرب على فليب[٥٥] . وبلغت ثروته فى ذروة مجده عشرة أضعاف ما خلفه له أبوه .

لكنه رغم هذا بلغ من النزاهة درجة رضى معها بالتعذيب والموت فى سبيل الآراء التى استؤجر للدفاع عنها . ذلك أنه أخذ يندد باعتماد أثينة على الجنود المرتزقة ، وأصر على أن المواطنين الذين يتقاضون أجوراً من « الرصيد » المخصص لإعانة من يحضرون ألعاب الحفلات الدينية ويشاهدون المسرحيات ، يجب أن يكسبوها بالخدمة فى الجيش ؛ وبلغ من شجاعته أن طالب بألا يؤدى هذا المال أجوراً لهؤلاء المواطنين ، بل يجب أن ينفق فى إعداد قوة حربية للدفاع عن الدولة أحسن من القوة التى لديها[*] . وقال للأثينيين إنهم قوم كسالى منحلون فقدوا ما كان يتصف به آباؤهم من فضائل حربية ، وأبى أن يصدق أن دولة المدينة قد وهنت قواها بالانقسامات الحزبية والحروب ، وأن الوقت قد آن لتوحيد بلاد اليونان . وأنذر الأثينيين بأن هذه الوحدة ليست إلا أقوالا تخفى وراءها خضوع

(*) لقد توسعت الدولة فى رصيد « المناظر » هذا (theoric fund) حتى صار يستخدم فى كثير من الاحتفالات بدرجة كاد معها أن يجعل جزءاً كبيراً من المواطنين فى عداد من يتلقون إعانات من الدولة . وفى ذلك يقول جلوتز Glotz : « إن الجمهورية الأثينية قد أصبحت جمعية تعاونية خيرية تأخذ المال من إحدى الطبقات لتنفقه على طبقة أخرى[٥٦] » . وكانت الجمعية قد جعلت الإعدام جزاء كل من يقترح تحويل هـذا المال لأغراض غير الغرض الذى رصد له .

بلاد اليونان جميعها لرجل واحد . ولقد تبين أطماع فليب من أعراضها الأولى وتوسل إلى الأثينيين أن يحاربوا للاحتفاظ بأحلافهم ومستعمراتهم فى الشمال .

وكان ، اسكنيز وفوشيون وحزب السلم يعارضون دمستين وهيبريديزو حزب الحرب . وليس ببعيد أن كلتا الطائفتين كانت مرتشية الثانية من قبل الفرس والأولى من قبل فليب[٥٧] ، وإن الاثنتين كانت تعملان بإخلاص للوصول إلى أغراضها تدفعهما الحماسة التى أثارتها كلتاهما فى قلوب أتباعها . وقد أجمع أهل ذلك العصر على أن فوشيون كان أشرف رجال السياسة فى أيامه — كان رواقيا قبل أن يؤسس زينون الرواقية ، وفيلسوفا من خريجى مجمع أفلاطون العلمى ، وخطيبا يحتقر الجمعية احتقارا يستطيع القارئ أن يتبينه إذا ذكرنا له أنها حين صفقت له التفت إلى أحد أصدقائه وسأله : « ألم أرتكب خطأ فى قولى من حيث لا أدرى ؟ »[٥٨] . وقد اختير قائدا (Strategos) خمسا وأربعين مرة ففاق فى هذا پركليز نفسه ؛ وتولى مراراً كثيرة قيادة الجيش وأظهر فى كل مرة كفاية عظيمة ، ولكنه قضى معظم حياته يدعو إلى السلم . ولم يكن رفيقه إسكنيز رواقيا فى معيشته ، بل كان رجلا ارتقى من الفقر المدقع إلى الثراء الواسع ، اشتغل فى صباه بالتدريس والتمثيل فأعانه ذلك على أن يكون خطيبا مصقعا ، وأول خطيب يونانى — على ما يقول المؤرخون — يرتجل الخطب ارتجالا وينجح فى ذلك أعظم نجاح[٥٩] ، بينا كان منافسوه يعدون خطبهم ويكتبونها قبل إلقائها . واشترك مع فوشيون فى عدة وقائع حربية ، فأخذ عنه سياسة التراضى مع فليب بدل الاشتباك معه فى الحرب ؛ ولما أن كافأه فليب على جهوده استحال تحمسه للسلم ولاء لها وإخلاصا .

واتهم دمستين اسكنيز مرتين بأنه يرتشى بالذهب من مقدونية ، ولكنه فى كلتا المرتين عجز عن إثبات التهمة . على أن فصاحة دمستين الحربية وتقدم فليب نحو الجنوب أقنعا الاثنين آخر الأمر أن يمتنعوا وقتا ما عن توزيع رصيد المناظر وأن يستخدموه فى الاستعداد للحرب . ففى عام ٣٣٨ نظموا على عجل

قوة زحفوا بها إلى الشمال لملاقاة فيالق فليب عند قيرونيا البوئوتية . وأبت اسپارطة أن تقدم معونتها لأثينة ، ولكن طيبة أحست بقبضة فليب تطبق على عنقها فأرسلت فرقتها المقدسة لتحارب إلى جانب الأثينيين ، وقتل الثلثمائة جندى الذين تتألف منهم هذه الفرقة فى الميدان ؛ وحارب الأثينيون بهذه الشجاعة نفسها أو بما يقرب منها ، ولكنهم كانوا قد تباطأوا فوق الحد المباح ، ولم يعدوا العدة لملاقاة جيش المقدونيين المسلح على أحدث طراز . فكانت النتيجة أن منوا بهزيمة شتتت شملهم ففروا أمام بحر الرماح الزاحفة عليهم وفر معهم دستين . وكان الإسكندر بن فليب يبلغ وقتئذ الثامنة عشرة من عمره ، وكان يقود فرقة الفرسان المقدونية بشجاعة تبلغ درجة التهور أنالته شرف الانتصار فى هذه المعركة الحامية الوطيس .

وكان فليب كريما فى انتصاره كرما تمليه عليه خطته السياسية التى رسمها . نعم إنه أعدم بعض زعماء طيبة المعادين للمقدونيين ، وأقام فى تلك المدينة حكومة أليجركية من أشياعه ، ولكنه أطلق سراح الألفى أثينى الذين وقعوا أسرى فى يديه ، وأرسل الإسكندر الظريف وأنپاتر Antipater العاقل الحكيم ليعرضا الصلح على أثينة على شريطة أن تعترف به قائداً عاماً لبلاد اليونان. كلها ضد عدوها المشترك . وكانت أثينة تتوقع شروطاً أقسى من ذلك كثيراً ، ولهذا فإنها لم تقبل هذا الشرط فحسب ، بل أصدرت فوق ذلك قرارات. تكيل فيها الثناء لهذا الأجمنون الجديد . وعقد فليب فى كورنثة جمعية (سندريون Synderion) من الدول اليونانية ، وألف منها جميعاً (عدا اسپارطة) حلفاً على نظام الحلف البوئوتى ، ورسم الخطوط الرئيسية لخططه التى تهدف إلى تحرير آسية . واختير بالإجماع قائداً عاماً لهذه المغامرة الكبرى ، وتعهدت كل دولة أن تمده بالرجال والسلاح ، ووعدته ألا يحارب يونانى من أى بلد كان فى صفوف أعدائه . وكانت هذه التضحيات كفارة رخيصة للعداء الذى أظهرته هذه المدن من قبل .

(شكل ٤١) « فرديتي بندس » (متحف الفاتيكان بروما)

(شكل ٤٢) نيكي پيونيوس (متحف أولمبيا)

ولم تقف النتائج التى تمخضت عنها قيرونيا عند حد . فقد تحققت بها الوحدة التى عجزت عن تحقيقها بلاد اليونان من قبل ، وإن كانت لم تتحقق إلا على ظبا سيف رجل يكاد أن يكون أجنبياً عنها . وكانت الحرب البلوپونيزية قد أثبتت عجز أثينة عن تنظيم هلاس ، وأثبتت الحوادث التى أعقبت هذه الحرب عجز اسبارطة عن هذا التنظيم وعجزت طيبة عن بسط سيادتها على البلاد ، وأنهكت حرب الجيوش والطبقات قوى دول المدائن ، وتركتها ضعيفة عاجزة عن الدفاع عن نفسها . لهذا كان من حسن حظها أن تجد لها فى هذه الظروف فاتحا معقولا يعرض عليها أن ينسحب من ميدان النصر ويترك للمغلوبين قسطا كبيرا من الحرية . والحق أن فليب ومن بعده الإسكندر كانا يحيطان استقلال الدول المتحالفة بحمايتهما ووقايتهما ، حتى لا تضم إحدى هذه الدول غيرها إليها فيكون لها من القوة ماتستطيع به أن تحل بينها محل مقدونية . بيد أن فليب قد سلبها نوعاً غالياً من الحرية — ونعنى به حق الثورة . فقد كان محافظا صريحا ، يرى أن استقرار الملكية حافز لا غنى عنه للإقدام والنشاط ، ودعامة لا بد منها للحكم . ومن أجل هذا حمل المجمع المقدس فى كورنثة على أن يضع بين مواد الحلف عهداً يقطعه المتحالفون على ألا يدخلوا فى الدستور تغييراً ما ، وألا يبدلوا النظم الاجتماعية بحال من الأحوال ، ولا يتورطوا فى الانتقامات السياسية . وكان فى كل ولاية يؤيد بنفوذه المدافعين عن الملكية ، وقضى قضاء تاما على الضرائب الفادحة التى تبلغ درجة مصادرة الأملاك .

وكان قد أحكم وضع خططه كلها إلا ما يختص منها بزوجته أولمبياس Olympias ؛ ولهذا فإن الذى قرر مصيره آخر الأمر لم يكن هو انتصاره فى ميدان القتال ، بل كان عجزه عن الانتصار على زوجته . ولم يكن يرهب منها أخلاقها وحدة طباعها فحسب ، بل كان يرهب فوق ذلك اشتراكها فى الطقوس الديونيشية الهمجية . وقد وجد فى ذات ليلة أفعى إلى جانبها فى

السرير فارتاع ولم يذهب عنه روعه حتى بعد أن قيل له إن الأفعى إله من الآلهة . وأسوأ من هذا أن أولمبياس أخبرته ذات مرة أنه لم يكن والد الإسكندر الحقيقى ، بل إن صاعقة قد انقضت عليها ليلة زفافهما وأشعلت فيها النار ، وأن الإله العظيم زيوس — أمون هو الذى حملت منه بالأمير المقدام . ونفرت هذه المنافسات المختلفة فليب منها فولى وجهه شطر غيرها من النساء ، وشرعت أولمبياس تتأر لنفسها منه فأخبرت الإسكندر بسر أبوته الإلهية(٦٠) . وزاد الطين بلة أن قائداً من قواد فليب يدعى أتلس Atallus طلب أن يشرب نخب ولد فليب المرتقب من زوجة أخرى وقال إنه الوارث « الشرعى » (أى المقدونى لحما ودما) لعرش البلاد . فما كان من الإسكندر إلا أن ضربه بالكأس فى رأسه وصاح قائلا : « وهل أنا إذن ابن زنى ؟ » . واستل فليب سيفه يريد أن يقتل به ولده ولكنه كان ثملا لا يستطيع الوقوف . فضحك منه الإسكندر وقال : « ها هو ذا رجل يستعد للانتقال من أوربا إلى آسية وهو لا يستطيع أن يخطو آمنا من مقعد إلى مقعد » . وبعد بضعة أشهر من ذلك طلب ضابط من ضباط فليب يدعى بوسنياس أن يأخذ له الملك بحقه من أتلس لإهانة لحقت به منه ، فلما لم يجبه الملك إلى طلبه اغتاله (٣٣٦) . وكان الإسكندر محبوباً من الجيش حبا يقرب من العبادة ، وكانت أولمبياس تؤيده(*) فاستولى على أزمة الملك ، وتغلب على كل ما لقيه من مقاومة ، وأخذ يعد العدة لفتح العالم .

(*) وكان يظن أنها هى التى حرضت بوسنياس على قتل فليب .